العلم وعلاقته بالأخلاق

للأديب الأفغانى

محمد سعيد بخت ولى

طالما كان العلم حديث الناس ، ومبعث تساؤلهم: هل هو مساعد للعمران ، وأداة للسلام ، أو هو الآلة المقوضة لراحة البشر ونذير الويلات والآلام ؟ . وقد تشعبت الآراء ، وتباينت الأفكار فى حل ذلك اللغز المعمى ، حتى بات الأنسان حائراً لايدرى أى الآراء أصوب ! . فمن قائل : إنه كلما ازدادت المدنية والعمران ، كلما ازداد شقاء الانسان وتفتحت أمام ناظريه معضلات كان فى غنى عنها . وذلك بفعل العلم وتقدمه . فهذه الغازات السامة وهاته القنابل الفتاكة ، وتلك الغواصات المقلقة ، وما شابهها من آلات التدمير هى نتيجة لتقدم العلم والعرفان . فما ازداد العلم إلا والخراب قد أوشك ، وما تقدمت المعارف إلا والدمار قد حل . فنظرة واحدة الى امريكا ولصوصها ، وكيف إن كل واحد منهم أخذ يتفنن فى ضروب الحيل ، وتدبير المؤامرات لسلب الأموال ، وقتل الأنفس حتى أعجز بدهائه رجال الحفظ ، فلو لم يكن هؤلاء قد تسربلوا برداء العلم لما وسعهم أن يقوموا بمثل ما قاموا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

ومن قائل : إنه كلما ازداد العلم توسعا كثر الرخاء والأمن . فها هو ذا الطب يتحفنا كل يوم بدواء جديد يشفى مرضا مستعصيا كان صاحبه الى الموت أقرب منه الى الحياة ، وهذا هو البرق السلكى واللاسلكى ، والقاطرات والطيارات وما ماثلها من الآلات التى تقرب البعيد وتدنى القصى ، كل ذلك كان سببا فى تضاعف رقى الأنسان وتقدمه ، وأصبح يتمتع بالحياة تمتعا أقرب الى الكمال ، وما ذلك إلا بفضل العلم ونعمته .

* * *

ومما لا ريب فيه ، إذا أنعم الأنسان النظر فى هذا الموضوع يجد أن العلم وحده ليس بكاف لأن يكون أداة لأسعاد العالم أو شقوته . فثمة قوة أخرى تسير العلم وتجعله تارة أداة للسلام وأخرى للويلات والآلام . وتلك القوة الفعالة هى التى يجب علينا أن ننظر اليها وندرك كنهها . فالعلم كالسيف يستعمله قاطع الطريق لسلب المارة ويدافع به المجاهد عن وطنه . وحيث إن العبرة ليست بالسيف بل بحامله كذلك العلم فأنه أداة مسيرة فى يد إنسان مخير .

فالقوة التى تسير العلم وتدفعه الى طريق الخير أو الشر هى النفس ، فان النفس كالأرض ، والعلم كالنبات فاذا كانت تربتها حسنة كان نباتها نافعاً والعكس بالعكس . ومتى علمنا ان القوة الحقيقية فى تسيير العلم الى الخير أو الشر هى النفس ، وأن بيدها سعادة العالم أو شقاءه . فعلينا إذن أن نبحث فيها من جهة فعل الخير أو الشر فنقول : إن النفس لها أحكام أدبية تصدر قبل الفعل حيث تحكم أن هذا الفعل خير أو شر وأنه من النافع أو الضار عمله . وينشأ عن هذا الحكم معنيان وهما : (١) معنى الخير فى ذاته أى الكمال الخلقى ، وكون العقل موافقاً أو مخالفاً له (٢) ومعنى الواجب أى الالتزام الأدبى وهو ضرورة إتمام العمل أو الامتناع عنه تبعاً لمطابقته أو مخالفته للخير المجرد ، وهذان المعنيان مرتبطان بعضهما ببعض بلا افتراق . فهذا خير يمكننى أن أعمله إذن يجب أن أعمله ، وهذا شر أستطيع أن أتركه إذن يجب أن أتركه . بيد أن هناك عقبة كبرى تعترضنا وهى : إنه ثبت بالتجارب أن طريق الشر وحب الذات أهون من طريق الخير ومحبة الايثار . ولأجل التغلب على تلك العقبة أصبح من اللازم علينا أن نتحصن بالأصول التى تقوم عليها الأخلاق الانسانية ، والتى وفاها فلاسفة الأسلام حقها وعجز عن تحديدها عظماء فلاسفة الغرب ! . ولقد يتساءل المرء عن هذه الأصول فيجيب عن هذا السؤال أحد فلاسفة الألمان وهو (شوبنهور Schopenhauer) بقوله : « يسهل الأمر بمكارم الأخلاق ، ولكن يصعب تأسيس قواعدها » وشرح قوله هذا وعلق عليه الفيلسوف الفرنسى (الفرد فوييه Alfred Fouillée) فقال فى كتابه (نقد المذاهب الفلسفية) : « الدليل على تلك الصعوبة ، الأزمة الراهنة التى وقع فيها علم الأخلاق . فقد قلبت مسألته على كل وجه ولم يظهر الآن أن أصلا من تلك الأصول يقوم على ركن ركين أو على الأقل يكفى وحده فى التعليل . » فانت ترى بعين رأسك كيف أن فلاسفة أوربا أفلسوا تمام الافلاس فى تأسيس قواعد تلك الأصول . وإنا لذا كرون لك ما قاله أحد فلاسفة الأسلام ليتبين لك أن الحق أبلج والباطل لجلج .

قسم الفيلسوف ابن مسكويه قوى النفس التى تصدر عنها الأخلاق الأنسانية الى ثلاثة أقسام : (١) القوة العاقلة ويكون بها الفكر والتمييز (٢) والقوة الغضبية ، ويصير بها الغضب والنجدة والاقدام على الأهوال وما شابه ذلك (٣) والقوة الشهوية ، ويكون بها الشوق الى الملاذ من المآكل والمشارب والمناكح وضروب اللذات الحسية ، . وإن كلا من هاته القوى متباينة ، فاذا قويت إحداها على الأخرى أضرت بها . فالواجب إذن الاعتدال . فان الاعتدال فى القوى العاقلة تنشأ عنه فضيلة العلم والحكمة ، وينتج من الاعتدال فى القوة الغضبية فضيلة الحلم والشجاعة . ويحدث من الاعتدال فى القوة الشهوية فضيلة العفة والسخاء ، ثم

ينشأ عن هاته الفضائل الثلاث باعتدالها ونسبة بعضها لبعض فضيلة هى كمالها وتمامها وهى فضيلة العدالة . فلذلك أجمع الحكماء والفلاسفة على أن أجناس الفضائل وهى أصول قواعد مكارم الأخلاق أربعة : (١) الحكمة (٢) والعفة (٣) والشجاعة (٤) والعدالة .

وصفوة القول ، إننا إذا زكينا أنفسنا وريضناها على حب الخير اتجهت معارفنا وعلومنا نحو الخير ويصبح إنتاجنا خيراً محضاً . وذلك مصداقا لقول الله تعالى : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها . »

محمد سعيد بخت ولى

كلمات

لشاعر الهند وفيلسوفها رابندرنات تاجور

أحس كأنما النجوم قاطبة هى مشكاة تضىء لى سويداء قلبى ... فالعالم يقبل على ، ويفتت فى حياتى ولكنه يبدو لى كأنه فيض يغمرنى !

والأزهار تتفتح فى جسدى !

والشباب أجمع ، فى الأرض أو فى الماء ، تصعد منه الأبخرة فكأنها موقدة بخور قد تخذت مستقرها فى قلبى ! وإن جميع الكائنات إذا أرادت اللعب بتفكيرى فكأنها توقع أنغاما على ناى ! !

***

عند ما يهجع الكون ، ويعم الهدوء . . آتى إلى بابك . . !

النجوم فى سكون ، غير أنى وجل من غنائى . . فاقف مترقبا متلفتا حتى يمر خيالك فى شرفة الليل ، وعندئذ أرجع هانئاً مسروراً . . !

وأما اذا بزغ الصبح فانى أبدأ غنائى على قارعة الطريق . .فتجيبنى الأزهار المتناثرة فى سياج الحديقة ، ويصغى الى هواء الصبح ونسيمه ، ويقف المسافرون فجأة ، ناظرين الى ، ظانين بانى قد ناديتهم بأسمائهم ! !

محمد فريد طاهر